التجديد و الثقافة و العولم

عناصر الدرس:

العولمة : المصطلح و المفهوم

عولمة الحياة /عولمة الثقافة

تأثيرات العولمة على النص الأدبي

تجليات الرقميات في النصوص

العولمة : المصطلح و المفهوم: مصطلح العولمة هو المقابل العربي للمصطلح الفرنسي الذي أورده قاموس لاروس « Mondialisation » ، و حسب صيغة أوليفي دولفيس هي "التبادل المعمم بين مختلف أجزاء الكرة الأرضية" (1) و على الرغم من أن اللقاء بين المجتمعات موجود منذ القدم ، إلا أن الحديث عن " العولمة " بدأ فقط في الثمانينيات من القرن الماضي، و ازداد تداوله في كل الحقول منذ التسعينيات . و لعل التبشير المعرفي– الثقافي لهذا المصطلح كان مع مارشال ماكلوهان الذي تحدث في ستينيات القرن الماضي حيث تنبأ بتقلص العالم ، و بفضل الثورة التكنولوجية إلى ما أسماه Global– villageالقرية الكونية . و قد توالت و منذ نهاية الثمانينيات الكلمات و العبارات المقابلة لذلك المصطلح كالكونية ، الليبرالية الجديدة ، الشمولية ،و أحيانا يستعمل مصطلح الأمْركة عند الذين يرون أن " نظرية العولمة ليست سوى الوجه الآخر للهيمنة الامبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة للولايات المتحدة الأمريكية" (2) و نظرا لكون هذا المصطلح يمس مختلف الحقول (السياسة ، الاقتصاد، المال ، الثقافة ، الفكر ، الإبداع ..) فالمفاهيم التي قُدمت له لا تعد و لا تحصى ، و هي متنوعة حسب مجال الاستخدام

،و يكتنفها الغموض في غالب الأحيان و هو ما أشار إليه محمود أمين العالم في قوله :" لا يزال الغموض والالتباس أو اختلاف الدلالات يكتنف مفهوم العولمة في تناوله وتداوله بين العديد من العلماء والمفكرين والمثقفين في ساحة الفكر العربي المعاصر، ولعلّنا نجد هذا الأمر نفسه بمستويات مختلفة في ساحة الفكر الإنساني عامة، وهو أمر طبيعي في لحظة ميلا أيّ مفهوم جديد أو حتى مجرد صياغة مصطلح جديد، والعولمة . بغير شك . مصطلح جديد" (3) و مع هذا يمكن القول بشكل مبسط مع الباحث الاجتماعي الانجليزي أنتوني جيدنز بأن العولمة هي " مرحلة جديدة من مراحل بروز وتطور الحداثة، تتكثف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي حيث يحدث تلاحم غير قابل للفصل بين الداخل والخارج، ويتم فيها ربط المحلي والعالمي بروابط اقتصادية و ثقافية و سياسية و إنسانية" (4) بحيث يزداد الارتباط بين المجتمعات و بسود التشابه في أنماط المعيشة.

عولمة الحياة/ عولمة الثقافة :

من بين المفاهيم التي قدمت للعولمة هي كونها زيادة في " درجة الارتباط والتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال و تقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلوم ات" (5). حيث تعيش المجتمعات تغيرات جذرية في نمط حياتها الذي صار يتميز بالتشابه في ظل سوق واحد كبير و فضاءات إعلامية و تواصلية مفتوحة . و لعل مظاهر العولمة تتجلى في جميع المناحي ، فعلى الصعيد الاقتصادي مثلا نلاحظ– عبر العالم– الشركات العابرة للقارات و حركة انتقال رؤوس الأموال و مختلف الخبرات الاقتصادية ،و هو ما خلق مدنا متشابهة عبر العالم في أنماط الإنتاج و العيش و الغذاء، و لعل أبسط مثال نسوقه هنا مطاعم الماكدونالد المتناثرة هنا و هناك في كل مدن العالم . و إذا تحدثنا عن الإعلام فالأمر لا يختلف ، فالجميع– و بواسطة الثورة الرقمية– موجود على سطح واحد ، و كل ذلك كان له انعكاساته على الجانب الثقافي و الإبداعي ، حيث يمكن تلمس الوجه الآخر للشركات المتعددة الجنسيات في الآداب و الفنون في إطار عمليات التناص والمحاكاة

. و لعل حالة التشابه و الذوبان هذه هي التي دفعت و تدفع المثقفين باستمرار إلى رفض العولمة ومشاريعها ، و الأمر لا يتعلق فقط بالمجتمعات العربية التي تعودت الارتياب من كل جديد ، بل إن فلاسفة غربيين و مفكرين عُرفوا بدورهم "الانفصالي" عن المؤسسة انتابتهم الحسرة على "الزمن الجميل" وراحوا ينعونه محتاطين من العولمة و طروحاتها ، فها هو "بيار بورديو" الذي و" منذ بكرة مشروعه النقدي يحاول تقويض المؤسسات الاجتماعية بمستوياتها المختلفة على أساس أنها تمثل سلطات رمزية ومادية للهيمنة اليوم يحن إلى زمن الدولة الجميل،فبعدما قضى شطرا من حياته يدمر المفاهيم المتعلقة بالأطر المجتمعية وعلى رأسها مفهوم الدولة ... يتمسك الآن بالدولة بوصفها الضامن للمصلحة أو خشبة الإنقاذ من موجة العولمة،وتلك هي محصلة الموقف الأيديولوجي لدى العالم الفرنسي:اختزال العولمة والتراجع إلى الوراء أي نفي ما يحدث لإنقاذ تصوراته الأزلية عن العدالة والمساواة والحرية" (6).

ولا يختلف الأمر مع "جيل دولوز" الذي يتحسر على نهاية الفلسفة التي تخلت عن دورها الريادي في إبداع المفاهيم و قيادة الإنسان، فاسحة المجال للمعلوماتية واقتصاد المعرفة،فيصرخ قائلا:«قد بلغ العار مداه أخيرا حينما استحوذت المعلوماتية والتسويق التجاري وفن التصميم والدعاية،وكل المعارف الخاصة بالتواصل،على لفظة المفهوم ذاتها،وقالت،هذه هي مهمتنا،نحن الخلاقين،إنما نحن منتجو المفاهيم، نحن وحدنا أصدقاء المفهوم،نجعله داخل حاسوباتنا.يصبح الإعلام هو الإبداعية،والشركة هي المفهوم»(7).

تأثيرات العولمة على الأدب: مع العولمة ظهرت ألوان جديدة من الأدب بتأثير الوسائط التكنولوجية و الرقمية ، و ظهرت مصطلحات جديدة لوصف الأدب ، كالأدب التفاعلي ، و الأدب الرقمي **و**" الأدب الرقمي هو تعبير عن تطور النص الأدبي .الأدب لا يعيش حالة الثبات من حيث نظامه و بنائه، نظرا لكونه يعرف تحولات في شكله و لغته تبعا لتغير وسائطه مما يؤثر على مختلف مكوناته من جهة ، و

نظام ترتيب تلك المكونات من جهة ثانية ، الأدب الرقمي هو محقق الآن في التجربة الغربية و هذا راجع لتطور وسائطه التي تساعد على الانخراط فيه بسرعة ، أما في التجربة العربية فهو ما يزال يعرف تعثرا كبيرا في تحقيقه ، لأن ثقافة الوسائط التكنولوجية التي يعتمدها الأدب الرقمي في إنجازه و تحققه ما تزال لم تتشربها بعد الذهنية العربية " (8) و لعل هذا الكلام لا يصدق على تجربة الأدباء اليوم ، حيث يبدو و كأن الجميع انخرط في هذه التجربة على ما فيها من إيجابيات و سلبيات تماما مثل العولمة نفسها .

فمن ناحية يحقق جهاز الحاسوب و وسائل التواصل و المنصات المختلفة إمكانية النشر و الانتشار دون كلفة " فإذا كانت هذه الآلية تتضمن ذهاب الرّوائيين إلى عواصم الأدب المعاصرة، فالنّتائج المتحققة في مسعى العولمة ستكون أوضح ظهوراً في نشوء أسلوب لدمج التّراث الغربي بالشّرقي وذلك بصهر إرث هذه الآداب معاً." (9) تنشط في هذا السياق عمليات التبادل الثقافي المثمر و يلعب التناص دوره الجمالي و الفكري على نطاق واسع . إن العولمة تسمح بالتفاعل مع الأفكار الجديدة بيسر وتحقق ديمقراطية الانتشار كما تسمح الاستفادة من خدمات الشبكة العنكبوتية بتجديد النصوص التي تستغل التقنيات الرقمية استغلالا واسعا و يمكن أن نمثل هنا برواية شات للكاتب الأردني محمد سناجلة .

لقد امتلك العمل الأدبي مساحة أوسع مما كان وارداً سابقاً، بفعل الأدوات التي أتيحت للقراء وإمكانية تقريب المسافات كنتاج لمسعى المراكز في محو الحدود وإلغاء فوارق استقبال وتقبل معنى المنتج الأدبي "إنَّ العالم لم يعد مسكنا لكيانات مجتمعية مفصولة ومعزولة عن بعضها البعض وإن العالم صار مترابطاً بصورة عضوية.. بحيث إنَّ ما يحدث في أي بقعة فيه يؤثر في جميع بقاعه الأخرى مهما تباعدت المسافات أو تنافرت الثّقافات" (10).

لكن في مقابل فتوحات العولمة هذه و إنجازاتها المؤثرة إيجابا على النص الأدبي هناك التأثيرات السلبية فقد صار من هب ودب شاعرا و فنانا و روائيا، واضمحلت الأفكار في ظل النشر السريع و أحيانا

التلقائي الذي ينسف كل القيم و المعايير الفنية "فمع ما بعد الحداثة و محو الحدود بين الثّقافة العليا والثّقافة الدّنيا اختلطت الأمور لدرجة يصعب معها الفصل بين الأدب الرّفيع وأنماط السّوق. أي الدّخول إلى عملية تهجين ثقافي حيث لا يبقى هنالك شيء اسمه ثقافة أصيلة"(11) فباتت الوسائل التّقنية وبسبب تميزها في جهات دون سواها، تؤمن ذيوع مسلك أو اتجاه أسلوبي يرافقه زخم إعلامي يكون الغرض من ورائه تأمين القبول عند الآخر. و انسحب هذا التأثير على الذائقة الفنية التي تسير غالبا في اتجاه واحد بفعل هيمنة معينة مبرمجة مسبقا و متمركزة حول أساليب بعينها "من خلال بث ثقافات معينة يكون لها تأثير مباشر على الذّوق العام وعلى تسيد اتجاهات وأساليب أدبية دون سواها، الأمر الذي يجعل الرّوائيين يعملون بمقتضى إيحائها، فتكون النّتائج المستقبلية خدمة لأجل ترسيخ تلك المفاهيم. وفي قراءة مباشرة لمفهوم الاستهلاك وثقافة الابدال المتسارعة، يتبين المغزى والجدوى من زيادة عدد الرّوائيين، أو المشتغلين في مجال التّخصص الرّوائي، ما دامت كلمة روائي ستطلق على كل من يملك فكرة جديدة تطوع بوسائط موائمة وتقدم بعدّها عملاً روائياً فنياً، فخلف ثقافة الاستهلاك ذاتها يظهر اللّعب أو اللّهو السّاخر، إنَّها ضد الموقف المتحفي والأكاديمي في عمل الأدب وكيانه. واتساع سوق الأدب وتزايد الرّوائيين والفنانين والعاملين في المهن أو الحرف المساعدة ولاسيما في مراكز العواصم . فالأمر يكون انقلاباً على الأدب الأكاديمي المتوارث، بمقدار ما مثل تحولاً نحو منطلقات عالمية جديدة يتيح للانتشار أنْ يعاضد سمات العولمة ويخدمها." (12) و تسند هذه الآليات الخاصة بعولمة الأدب ، تبعا لعولمة الحياة مظاهر ثقافية تعطي المبررات لذلك التوجه ، مثل مصطلحات الوحدة البشرية و الحرية المطلقة و الأرض المشتركة و الهوية الدينامية و الذات الخلاقة.

تجديد النصوص في ظل المعطى الرقمي:

يتحدث محمد سناجلة رائد الرواية الرقمية في الوطن العربي عن خصائص هذا الفن الجديد فيقول :" هي الرواية التي تستخدم الأشكال الجديدة التي أنتجها العصر الرقمي ، و بالذات تقنية النص المترابط (هايبرتكست) و مؤثرات المالتي ميديا المختلفة من صورة و صوت وحركة و فن الجرافيك و الأنيميشنز المختلفة ، لتعبر عن العصر الرقمي و المجتمع الذي أنتجه هذا العصر ، الإنسان الرقمي الافتراضي الذي يعيش ضمن المجتمع الرقمي الافتراضي . و رواية الواقعية الرقمية هي أيضا تلك الرواية التي تعبر عن التحولات التي ترافق الإنسان بانتقاله من كينونته الأولى كإنسان واقعي إلى كينونته الجديدة كإنسان رقمي افتراضي" (13)

و ما يقال عن الرواية يقال عن باقي الأجناس الأدبية التي انخرطت في تجربة التجديد الرقمية ، فالأمر لا يخص الجوانب الظاهرية فقط المتمثلة في استثمار الصوت و الصورة و الحركة و الإضافات التعبيرية التي يسمح بها المعطى التكنولوجي ، و لكن التجديد مس الروح أيضا فهذا الأدب الرقمي الجديد يعكس ذاتا جديدة بهواجس فكرية و نفسية مختلفة ، إنها وحدة الإنسان المعاصر أمام جهازه ، و وحشته في عالم يضج بالأشباه و النظائر ، و غربته رغم تواجده دائما في حالة تواصل مع الآخرين الكثر . و التعويض عن كل ذلك بالصور و الألوان و الأصوات التي تؤمنها الوسائط التكنولوجية ، فتصير جزء من النص نفسه .

هوامش المحاضرة :